

تشنغ خه رسول السلام من الصين
郑和航海是中国向世界传达的和平使命
د. أسامة عبد السلام محمد منصور

المقدمة

الصين .. عندما ينطق هذا الاسم يتبادر إلى الذهن أمور كثيرة منها حضارة عريقة عمرها آلاف السنين السور العظيم الخالد والقصور الإمبراطورية العتيقة والباغودات الساحرة الفريدة الطراز أرض شاسعة ممتدة تحوى متاحف من البيئات الجغرافية والحدائق النباتية المترامية الأطراف إنسان أريب ذكي مهذب بارع في كل شيء من الفنون والزراعة والصناعة والتجارة وغيرها أرض الحرير والشاي والبورسلين ، ومنشأ صناعة الورق وفن الطباعة ركيزتى الثقافة والعلم . أرض الحشود البشرية الهائلة ، والقوميات المتعددة المنصهرة في بوتقة واحدة رغم سماها المختلفة .

ونحن اليوم بصدد الحديث عن إحدى منجزات هذا البلد ألا وهى رحلات البحار الصينى المسلم "تشنغ خه" هذا البحار الذى خرج بتكليف من حكومة أسرة مينغ للقيام بسبع رحلات بحرية إلى المحيط الهندى والمحيط الهادى فى الفترة من ١٤٠٥ حتى ١٤٣٣ قاد فيها أسطولاً ضخماً ، استطاع به الوصول إلى جنوب شرق آسيا وبلدان المحيط الهندى ، والجزيرة العربية ، وساحل إفريقيا الشرقى زار خلالها أكثر من ثلاثين بلداً ، وذلك بهدف دفع الدبلوماسية السلمية ، وتوسيع التجارة مع البلدان الأجنبية . والى كانت قد توقفت منذ دخول المغول الصين عام ١٢٧١ ، وكذلك استكشاف البحار و البلاد المختلفة ، ونشر ثقافة الصين ، والدعوة للتعايش السلمى العالمى .

وقد احتفلت الصين فى يوليو ٢٠٠٥ بمرور ستمائة سنة على بدء رحلات تشنغ خه ، وقد لفت هذا الاحتفال انظار العالم إلى الصين وإلى هذه الشخصية التى ربما لم تكن معروفة قبل ذلك لدى الكثير من سكان المعمورة ، ودفع العديد من الهيئات العلمية والباحثين فى مختلف دول العالم إلى محاولة البحث عن تاريخ هذه الرحلات ، واستكشاف شخصية هذا البحار العظيم.

وهذا البحث هو محاولة متواضعة لطرق هذا الباب وأرجو أن أوفق فى إبراز حقيقة رحلات تشنغ خه وتاريخها ، ولا أدعى ان هذا البحث قد سير غور هذا الموضوع وإنما أرجو ان يفتح هذا العمل الباب لباحثين أفضل وأساتذة أقدر على الكتابة فيه.

سيرة تشنغ خه

ولد تشنغ خه عام ١٣٧١م فى كونينغ (محافظة جينينغ فى إقليم يونان جنوب الصين) (١) وهو ينتمى إلى أسرة إسلامية من قومية هوى (٢) واسم عائلته (ما) وكان يدعى (ماخه) ، ويلقب أيضاً بـ " سان باو " ويقال انه من أحفاد السيد (بيان) الذى كان حاكماً على ولاية (يونان) فى عهد المغول وقد سافر والده وجده لأداء فريضة الحج (١) .

(١) مقاطعة يونان **Yunan** " جنوب الجبال " تقع فى جنوب غرب الصين ، وترجع تسميتها لكونها تقع جنوب جبال " ينولينغ " ، وتزيد مساحتها عن ٣٩٠,٠٠٠ كم مربع ، وتشتهر بالثروات المعدنية ، وبوفرة المحاصيل الزراعية ، ويفطنها عدد كبير من القوميات الصينية المختلفة ، ومن أهم مدنها : كونمينغ ، دونغتشوان .

للمزيد انظر : شيوى قوانغ : جغرافيا الصين ، ترجمة محمد أبوجراد ، دار النشر باللغات الأجنبية ، بكين ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧ ، ص ١٦١

(٢) قومية هوى **Hui** : هى أكبر القوميات المسلمة العشر فى الصين " هوى ، الويغور ، القازاق ، القرغيز ، الأوزبك ، التار ، الطاجيك ، الباوآن ، السالار ، الدونغشيانغ " وهى قومية كبيرة نسبياً من حيث تعداد سكانها من بين القوميات الست والخمسين فى الصين ، ومنتشر ابنائها فى جميع أنحاء الصين تقريباً ، ويعيش ٦٨ بالمائة منهم فى مقاطعات : نينغشيا ، قانسو ، تشينغهاى ، خنان ، شانندونغ ، بالإضافة إلى المدن الكبرى مثل بكين ، شانغهاى ، تيانجين وغيرها.

للمزيد انظر : تشو يوان : القوميات المسلمة فى الصين ، ترجمة وجيه هواى وى تشينغ ، دار النشر باللغات الأجنبية ، بكين ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨ ، ص ٧٨٨ .

وفي عام ١٣٨٢ وعندما كان (ماخه) في الثانية عشر من عمره سقط آخر معاقل جيش أسرة يوان المغولية (٢) في يوان ، ووقع (ماخه) في الأسر ؛ فاختد ليعمل في قصر الأمير (تشو دي) أحد أمراء الأسرة الحاكمة (٣) .

وخلال الحملات التي قادتها قوات أسرة مينغ (٤) للسيطرة على مناطق الصين ، كانوا يحرصون على جمع عدد كبير من الفتيان ؛ ليعملوا في القصور الإمبراطورية في فئة الخصييان ، وكان اختيارهم يقع على الأطفال الذين تبدو عليهم علامات الذكاء والنبوغ ، ومن يتمتعون ببنية قوية ، ثم يتم خصيهم ؛ لينضموا للخدمة في القصور الإمبراطورية ، وكان هذا الإجراء كثيراً ما يودي بحياة عدد كبير منهم ، أما من كتب لهم النجاة ، فكان يتم توزيعهم على القصور الإمبراطورية (٥) .

وكان (ماخه) من هؤلاء الذين كتب لهم النجاة ، فحمل ليعمل في قصر الأمير (تشو دي) ، ورغم ان الخصييان كانوا من ادنى الفئات مكانة في المجتمع الصيني ، إلا مهارات ونبوغ (ماخه) ؛ لفتت أنظار أميره فقربه منه وغمره برعايته (٦) .

وقد أظهر (ماخه) مواهب عديدة في الحروب التي شنها أميره لمحاولة السيطرة على العرش وبرزت كفاءته ، وساهم بقدر كبير في انتصار الأمير في حروبه الداخلية واستيلائه على العرش ؛ فحظي باعجاب وتقدير أميره والذي فور توليه العرش عام ١٤٠٣م كافى كل من ساعده ورقاهم إلى أعلى المراتب وكان منهم (ماخه) الذي حظى بأرفع تكريم ربما لم يحصل عليه احد من زملاءه ومنحه الإمبراطور اسماً صينياً هو (تشنغ)، فاصبح اسمه (تشنغ خه) (٧).

لقد ساعدت الظروف (تشنغ خه) في أن يصل إلى ما وصل إليه في غضون سنوات قليلة ، فقد نجح في صغره من الموت ، ثم انتقل ليعمل في قصر الأمير تشو دي ، والذي كان طموحاً جداً ويسعى للسيطرة على العرش ، ثم اتاحت له فرص كثيرة لإظهار مواهبه وقدراته ، فأصبح من أهم معاون أميره ، وحظي بفرص كثيرة للتعامل مع كبار موظفي الطبقة الحاكمة ، فالتسع بعد نظره ، وازدادت معارفه ، هذا إلى جانب استقامته وامانته واستعداده للتعلم واكتساب مهارة إدارة الشؤون السياسية والعسكرية ، وأساليب معالجة المشاكل المختلفة ؛ وهذا كله جعل الإمبراطور تشو دي والذي لقب بـ(يونغ لي) وتعني (السعادة الأبدية) ، يضع اول اختياره عليه ليقود الرحلات البحرية العظيمة.

-
- (١) قوه ينغ ده : تاريخ العلاقات الصينية العربية ، ترجمة تشانغ جيا مين ، المركز العربي للمعلومات ، بكين ، ٢٠٠٤ ، ص ٤٤ .
- (٢) أسرة يوان (١٢٧١-١٣٦٨) : هي أسرة مغولية حكمت الصين قرابة قرن من الزمان ، مؤسسها هو "قوبلاي خان" (١٢١٤ - ١٢٩٤) أحد احفاد جنكيز خان ، والذي استطاع الاستيلاء على الصين ، ولما ترك حكمه بالقوة والصرامة ، لكنه ترك خلفاء ضعفاء ، فضعفت الدولة وتمكنت عراها ، واستطاع جيش اسرة مينغ القضاء عليها عام ١٣٦٨م .
- للمزيد فضلاً انظر : تاريخ الصين ، سلسلة سور الصين العظيم ، دار بناء الصين للنشر ، بكين ، الطبعة الأولى ١٩٨٧ ، الجزء الثاني ، ص ٣٢ .
- (٣) محمود يوسف لي هوانين : الشخصيات الإسلامية البارزة في الصين ، دار الهلال الأزرق ، هونغ كونج ، الطبعة الولي ، ٢٠٠٣ ، ص ٤٤ .
- (٤) أسرة مينغ (١٣٦٨-١٦٤٤م/ ٧٧٠-١٥٠٤هـ) : هي أسرة صينية تولت حكم الصين حوالي ٢٧٦ سنة بعد انتفاضات عديدة شهدتها المقاطعات الصينية ضد حكم أسرة يوان نتيجة انتشار الفساد ، وسوء معاملة الفلاحين والحرفيين ، وقد قاد هذه الانتفاضة تشو يوان تشانغ (١٣٢٨-١٣٩٨م) واستطاع القضاء على أسرة يوان ، وتأسيس أسرة مينغ ، وتلقب بـ"مينغ تاي تسو" ... وقد شهد عهد هذه الأسرة تقدماً اقتصادياً ، شمل مجالي الزراعة والصناعة ، كما شهد تقدماً في مجالات العلوم والثقافة ، وظهر مفكرين حاذوا شهرة واسعة مثل لي تشي (١٥٢٧ - ١٦٠٢م) و"هوانغ تسونغ سي" (١٦١٠-١٦٩٥م) ، و"وانغ فو شي" (١٦١٩ - ١٦٩٢م) .
- للمزيد انظر : تاريخ الصين : سلسلة سور الصين العظيم ، ص ٣٨ .
- (5) Arnold Schrier : The Eunuch and the Giraffe , world history bulletin , Social sciences and philosophy , Arkan Tach Univeresity , 2007 , p 11.

(٦) محمود يوسف لي هوانين ، المرجع السابق ، ص ٤٤ .

(٧) قوه ينغ ده ، المرجع السابق ، ص ٤٤ .

وقد كان (تشنغ خه) يتمتع بصفات شخصية وجسمانية تؤهله للترقى والقيادة ، فإلى جانب ذكائه وكفائه ومواهبه ، كان قوى البنية ، جوهري الصوت ، واسع العينين ، إذا أقدم يبدو كالنمر في قوته وثقته بنفسه . كل هذا إضافة إلى ما قام به من دفاع واستبسال مع أميره ؛ دفعه فور توليه العرش ان يرقيه ويسند إليه مهمة قيادة الأسطول البحرى الضخم ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى يحظى فيها أحد الخصيان بهذه المكانة القوية وهذه السلطة العظيمة (١) .

الخلفية السياسية والاجتماعية لرحلات تشنغ خه

يعتبر المؤرخون أن عصر اسرة مينغ (١٣٦٨-١٦٤٤) من أزهى العصور الإمبراطورية التى عاشتها الصين على مدى تاريخها الطويل ، فقد شهد هذا العصر نهضة على مستويات وقطاعات مختلفة ، زراعية وصناعية وتجارية غيرها ، وكان عصر (منج) هو العصر الوحيد بعد عصر (تانج) (٢) الذى شهد توحيد الصين تحت حكم وطنى . فبعد ان استولى (تشو يوان تشانغ) (٣) على السلطة ، واصبح اول امبراطور للمنج ؛ سمي نفسه "منج تاي تسو" ولقب بـ "هوانج وو" ، كان النهوض بالزراعة أمراً ملحاً للغاية ، خاصة فى شمال الصين ، حيث الأراضي التى عمده المغول لتركها بوراً ، فظلت على مدى عدة عقود تعاني من القحط المتكرر ، ولتشجيع استصلاح الأراضي ؛ منح الفلاحون الأراضي كملكية خاصة لهم ، بالإضافة إلى منحهم إعفاءً ضريبياً على هذه الأرض لمدة ثلاث سنوات وتم إعداد سجلات خاصة للأراضي وإعادة النظر فى الضرائب مرة أخرى (٤) .

كما ارسل "هونج وو" الموظفين إلى الولايات والمحافظة لعمل مسح كامل للأراضي الزراعية ، وكذلك حصر الأراضي التى حازها كبار الملاك والإقطاعيين والعتاة المحليين وإجبارهم على دفع الضرائب المتأخرة ؛ فازدادت دخول الحكومة وبدأ القطاع الزراعى يرى طريقه للإزدهار (٥) .

أما بالنسبة للصناعة ، فقد صدر مرسوم للفلاحين بضرورة زراعة نسبة من الأراضي بالمحاصيل النقدية ، كأشجار التوت من أجل الحرير ، والقطن والقنب وغيرها من المحاصيل ، وقد ساعد هذا العمل على توفير المواد الخام لصناعة المنسوجات ، وكذلك زيادة مصادر دخول الفلاحين ، كما قررت الحكومة ان يدفع الصانع قدراً من الفضة بدلاً من الخدمة فى العاصمة — كان القانون قبل ذلك يقضى بان يعمل الصانع إجبارياً فترة ثلاث سنوات اوتزيد فى العاصمة الإمبراطورية — وسمحت للصانع ان يبيع منتجاته حيث شاء ؛ فنشطت حركة الصانع ، وارتفع الإنتاج ارتفاعاً ملحوظاً (٦) .

(1) ZHeng HE, S voyages Down The Westren Seas , complited by the information office of the people,s Gavernement of Fu Jian provinc , China intercontinental press, 8 .

(٢) أسرة تانغ (٦١٨-٩٠٧م) : هي أسرة صينية تأسست على يد موظف عام يدعى (لي يوان Li Yuan) ومعه ابنه الطموح الذي يدعى (لي جيه من Li Chih Min) ، الذي استولى على العاصمة تشانغآن ، وفي العام التالي أعلن قيام أسرة تانغ. وقد عرف عهد هذه الأسرة بالعهد الذهبي، حيث حافظ أباطرة هذه أسرة على حدود الصين، كما شهد عهدها نهضة اقتصادية وعلمية وثقافية كبرى.

انظر : جوزيف نيدهام : موجز تاريخ العلم والحضارة فى الصين، ترجمة محمد غريب، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٥م ، ص ٨٧ .

(٣) تشو يوان تشانغ (١٣٢٨-١٣٩٨م) : أول أباطرة أسرة مينغ ، ومؤسس الأسرة ، كان فلاحاً أجيراً، ثم التحق بجيش الشالات الحمراء (جيش الفلاحين الذي ذهب للقضاء على حكم المغول) تحت قيادة "قو تسي شينغ"، ثم تولى هو القيادة بعد وفاة القائد "قو"، وزحف بقواته العسكرية إلى جنوب نهر اليانغتسي، واستولى على مدينة "تشينغ" عام ١٣٥٦، وحول اسمها إلى "نيجتان" -تايكن حالياً-، واعتلى العرش بصفته إمبراطور لأسرة مينغ عام ١٣٦٨ ، وتلقب بـ "مينغ تاي تسو" .

للمزيد انظر : تاريخ الصين ، سلسلة كتب سور الصين العظيم ، جـ ٢ ، ص ٤٠ .

(٤) هيلدا هوخام ، تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى نهاية القرن العشرين ، ترجمة أشرف كيلاني ، المجلس الأعلى للثقافة ، الطبعة الأولى ،

٢٠٠٢ ، ص ٢٥٠

(٥) تاريخ الصين ، سلسلة كتب سور الصين العظيم ، جـ ٢ ، ص ٤٨

(٦) نفسه ، الصفحة نفسها

لقد كان هذا التساهل مع الصناع من جانب حكومة مينغ سبباً في زيادة المنتجات وجودة نوعيتها ، فاشتهرت اسرة مينغ بمسوحاتها المميزة وبخزفياتها الجميلة ، ناهيك عن باقى الصناعات (١) . وبالطبع كان للنهوض بمجالى الزراعة والصناعة اثره في زيادة النشاط التجارى وخاصة التجارة الداخلية وذلك لأن علاقات الصين التجارية مع جيرانها والبلدان الأخرى كانت ضعيفة في تلك الفترة ؛ لذلك كان التفكير موجهاً في المرحلة التالية لتطوير التجارة الخارجية ، وهذا لم يكن ليتم إلا في ظل قوة سياسية وعسكرية تحمى هذه التجارة وتبسط الأمن والسكينة في ربوع البلاد ؛ لذلك ما أن اطمئن الإمبراطور "يونغ لي" لاستتباب الأمن في أنحاء الإمبراطورية ؛ حتى شرع في الإعداد للرحلات الكبيرة .

لكن البعض يتسال عن الدافع الرئيسى وراء هذا التجهيز والإعداد القوى لهذه الرحلات !!
أسباب ودوافع رحلات تشنغ خه

اختلفت المصادر التاريخية فيما بينها حول الدافع الحقيقى وراء رحلات تشنغ خه ، فارتبط بعضها بالظروف التاريخية في تلك الفترة والبعض الآخر باعتقادات صينية موروثه ظلت عالقة في ذهن الصينيين لفترات طويلة . فتذكر المصادر الصينية انه " منذ اواخر عهد الإمبراطور "هونج وو" (١٣٦٨ — ١٣٩٨) بدأ التحريم الصارم للتجارة الخارجية — والذي مارسه منذ بداية حكمه — يسفر عن عواقب وخيمة ، فلم تعد البلاد الأجنبية تقدم الجزية للبلاط الصينى ، وأخذت مكانة الصين في الهبوط ، ولما استولى الأمير "تشو دى" على العرش ؛ قرر أن يغير هذا الوضع ، فأمر تشنغ خه بالإبحار إلى المحيط الهندي وهدفه الرئيسى أن يستعيد اتصالات الصين بالبلدان الآسيوية والأفريقية بما فيها البلدان العربية ؛ ليجدد هيبة أسرة مينغ ، ويعزز سلطتها الإمبراطورية ويجلب في نفس الوقت البضائع عن طريق التجارة البحرية ؛ " (٢) .

اما " سيرة تشنغ خه " من " تاريخ مينغ " فتذكر : " امر الإمبراطور "يونغ لي" تشنغ خه وغيره في يونيو ١٤٠٥ بالإبحار إلى المحيط الغربى (الهندي) ؛ لاقتفاء أثر الإمبراطور "هو دى" — الوريث الشرعى للعرش — والذي خيل إليه انه هرب إلى ما وراء البحار ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى إظهار جبروت سلاحه ويسر بلده وقوتها من جهة أخرى " (٣) .

إذا نظرنا للأسباب السابقة ، نرى أن بعضها يمكن أن يكون مقبولاً تاريخياً خاصة فيما يتعلق بمحاولة إمبراطور مينغ بناء علاقات تجارية واقتصادية مع بلدان آسيا وإفريقيا ، وأيضاً محاولة إظهار قوة وعظمة أسرة مينغ ، كذلك من المقبول أيضاً ان يكون احد أسباب هذه الرحلات هو تعقب وريث العرش الهارب .

اما ما يخص توقف البلدان الأجنبية عن إرسال الجزية ، وأن هذه الرحلات قامت لإرغام هذه البلدان على إعادة إرسال الجزية مرة أخرى ، فهذا أمر غير واقعى ، وهو يعود في الأصل إلى اعتقاد قديم عند الصينيين ، فحواه أن الصين هى مركز العالم ، وأن باقى البلاد تدور في فلكها ، وحاكمها هو ابن السماء ؛ الذى تخضع له جميع البلاد ، وتقدم له فروض الولاء والطاعة ، وعليها أن ترسل له الجزية باستمرار. والمتأمل لمعنى كلمة الصين في اللغة الصينية يفهم ذلك ، فهى تسمى "جونج جوا" " Zhong gua " (中国) وتعنى " المملكة الوسطى " كذلك فإن خريطة العالم التى يرسمها الصينيون تختلف عن نظيرتها المتعارف عليها عالمياً ، فالخريطة الصينية تجعل الصين في منتصف العالم يحدها العالم القلدم (آسيا وإفريقيا وأوربا من الغرب والعالم الجديد (الأمريكتين) من الشرق . وقد ظل هذا الاعتقاد سارياً حتى وقت قريب .

(١) هيلدا هوخام ، تاريخ الصين ، ص ٢٥١ .

(٢) قوه ينغ ده ، المرجع السابق ، ص ٤٤ .

(٣) ابراهيم فنغ جين يوان ، الإسلام في الصين ، تعريب محمود يوسف لى هواين ، دار الهلال الأزرق ، هونج كونج ، الطبعة الأولى ،

٢٠٠٣ ، ص ١٣١ .

لكن دعنا نناقش الأسباب والدوافع التي تبدو واقعية ، والتي تدل عليها الظروف التاريخية في ذلك الوقت ، فبالإضافة إلى النهضة التي شهدتها الصين في بداية أسرة مينغ ، كان الإمبراطور "يونغ لي" كما تصفه المصادر التاريخية ، رجلاً لديه ثقة كبيرة في نفسه ، وطموح وأحياناً غرور شديد ، وكان يسعى للشهرة والعظمة ، ولم يكن يريد استعراض قوة دولته وثروتها فقط ، بل أراد أن يبنى تحالفاً قوياً . وكان برنامج الطموح يهدف إلى بناء علاقات قوية مع بلدان العالم المعروف وقتها ؛ لذلك احتاج إلى اسطول يؤثر ويخوف ولواحتاج ليرهب كل من يحاول الوقوف في وجهه الصين (١) .

ويبدو ان هذا الفكر لم يكن لدى الإمبراطور "يونغ لي" بل كان راسخاً عند سلفه الإمبراطور "هونغ وو" (٢) . فعلى الرغم من العزلة التي فرضها "هونغ وو" في بداية عهده، وتحريمه للتعاملات الخارجية ، إلا ان السنوات الأخيرة من حكمه شهدت بدأ صلات تجارية مع بلدان كثيرة ، حيث سعى لتطوير علاقاته مع الدول الأجنبية او بمعنى أدق إحياء هذه العلاقات . ففي عام ١٣٩٣ أرسلت جاوة بعثة إلى الصين ثم تلتها بعثة أخرى في العام التالي ، وفي عام ١٣٩٧ أرسلت تشامبا بعثة إلى الصين . وقد وضح من المعلومات الواردة في سجلات أسرة مينغ أن الإمبراطور "هونغ وو" كان عازماً على تغيير سياسته كلية ، حيث كان يهتم بمعرفة الأوضاع الجارية في الدول التي بدأ معها علاقات تجارية ، وكان يسعى دائماً للوقوف على كل جديد فيما يتعلق بهذه الدول . وقد بدأ في عام ١٣٩٨ في إعداد بعثات لعدد من الدول في جنوب شرق آسيا وجزر المحيط الهندي ، إلا ان القدر لم يمهلها وتوفي قبل إرسال هذه البعثات بأيام قليلة (٣) .

وقد استكمل خلفه ما بدأه "هونغ وو" فشهدت الفترة من أكتوبر ١٤٠٢ حتى أكتوبر ١٤٠٣ أربع عشرة بعثة ما بين بعثات مرسله من الصين وأخرى قادمة إليها ، شملت هذه البعثات بلدان "سيام ، جاوة ، اليابان ، سومطرة ، تشامبا ، كمبوديا ، بوريو ، مالقا" (٤) .

لذلك ما أن تولى "يونغ لي" الحكم شرع في السير على طريق سابقه من ضرورة تطوير العلاقات التجارية والدبلوماسية مع جيرانه ، حتى ان المصادر تذكر أن الفترة من يوليو حتى نوفمبر ١٤٠٥ شهدت إرسال واستقبال ثمان عشرة بعثة من الدول سابقة الذكر (٥) .

مما سبق يتضح لنا ان قرار إرسال الرحلات لم يكن بالأمر المفاجيء او الغريب على الصين في ذلك الوقت ، وإنما كانت إرهابات هذا الامر قد بدأت في أواخر عهد "هونغ وو" وأن قرار إرسال هذه الرحلات ذات الإمكانات الكبيرة فقط يحتاج إلى إمبراطور لديه الجرأة والشجاعة وبعد النظر ، وقد كان "يونغ لي" هو صاحب هذه الصفات ؛ فكان القرار .

(1) Arnold Schrier : The Eunch and the Giraffe , p . 11 ., ZHeng He,S voyages Down The Westren Seas , p . 9

(٢) سعى "هونغ وو" منذ توليه الحكم إلى الحصول على اعتراف من الدول الأجنبية بدولته ؛ لذلك أصدر بياناً رسمياً جاء فيه : " منذ أن فقدت أسرة السونج العرش وقطعت السماء قربانهم خرجت أسرة اليوان من الصحراء لتدخل الصين وتحكمها لأكثر من مائة عام ، وعندما شتمت السماء سوء حكمهم وفسادهم جعلت مصيرهم الخراب والدمار أيضاً جزاء لهم وظلت شؤون الصين في حالة من الفوضى على مدى ثمانية عشر عاماً ، ولكن عندما بدأت الأمة في النهوض من كبوتها رأينا نحن الفلاح البسيط ان من واجبنا الوطني إنقاذ الشعب ، وقد أرسينا دعائم السلام في الإمبراطورية واستعدنا الحدود القديمة لأرضنا البوسطى ، كما اختارنا شعبنا ايضاً لاعتلاء عرش الصين الإمبراطورى وقد أرسلنا موظفينا إلى سائر الممالك الأجنبية بالبيان الرسمي ، وبرغم اننا لسنا بمثل حكمة حكامنا الأقدمين الذين اعترف العالم بأسره بفضائلهم ومنابهم فلا يسعنا إلا ان نطلع العالم على عزمنا على حفظ السلام في أراضي البحار الأربعة ، وعلى هذا الأساس فحسب أصدرنا هذا البيان الرسمي " . فضلاً انظر : هيلدا هوخام ، تاريخ الصين ، ص ٢٥٧ .

(3)Wang Gung Wu : Admiral Zheng He and southeast Asia , The opening of relation between China and Malcca ,edited by Leo Suryadinata , institute of Southeast Asian Studies , Singapore , 2005 , p.7.

(4)Wang Gung Wu : Admiral Zheng He and southeast Asia , p.8 .

(5)Wang Gung Wu Admiral Zheng He and southeast Asia , p.11.

الإعداد للرحلات

فور تلقى "تشنغ خه" الأمر بالإعداد للرحلات ؛ بعث رجاله إلى نانجينغ (١) ، وتشجيانغ (٢) ، وفوجيان (٣) ، وجيانغسى (٤) على التوالي للإشراف على إحضار الأخشاب والمواد اللازمة والإشراف على صنع السفن المختلفة الأشكال والأحجام منها سفن للبضائع والمجوهرات ، وسفن للخيول ، سفن للمؤن ، وسفن للجنود ، وسفن حربية ، وحشد في الوقت نفسه عدداً كبيراً من المتخصصين في الملاحة البحرية من مختلف أنحاء البلاد (٥).

لقد بدأ إنشاء هذا الأسطول الضخم منذ عام ١٤٠٣ ، وقدمت أغلب مقاطعات الصين تضحيات كبيرة وجهود جبارة ؛ لبناء ما سيصبح أكبر أسطول من السفن الملاحية في التاريخ بمقاييس ذلك الوقت .

كان الإمبراطور "يونغ لي" محظوظاً ، إذ أنه اعتمد في تحقيق حلمه بتكوين أسطول هو الأضخم من نوعه ، على خلفية بحرية قوية تميزت بها الصين منذ مئات السنين ، فقد شاع استخدام السفن الشراعية في الصين منذ ما قبل الميلاد ، ثم تطور في عهود أسرات "تانغ" (٦١٨-٩٠٧م) و "سونغ" (٩٦٠-١٢٧١م) وبلغت مستوى متميز في عهد أسرة يوان ، وقد شهد ابن بطوطة بذلك عندما زار الصين في القرن الثالث عشر الميلادي فقال : " ولما نزلنا بمدينة الزيتون ومرسأها من أعظم مراسي الدنيا أو هو أعظمها ، رأيت بها نحو مائة "جنك" كبار أما الصغار فلا تحصى كثرة " (٦).

هذا بالنسبة لصناعة السفن ، أما بالنسبة لعلم الإبحار فقد ورث الصينيون هذا العلم عن أسلافهم ، فمنذ عهد أسرة "سونغ" كان البحارة الصينيون يستفيدون من الشمس والقمر والنجوم في معرفة اتجاه الإبحار بصورة رئيسية ثم استخدموا البوصلة بعد ذلك وشهدت تطوراً كبيراً في بدايات أسرة مينغ (٧)

لذلك كله لم يجد الصينيون صعوبة في تنفيذ أمر الإمبراطور "يونغ لي" بصناعة السفن المطلوبة ، اعتماداً على خبراتهم التي توارثوها جيلاً بعد جيل .

(١) مدينة نانجينغ : حاضرة مقاطعة "جيانغسو" ، وتقع على الضفة الجنوبية لنهر اليانغتسى ، وهي مركز السياسة والاقتصاد والثقافة والمواصلات في المقاطعة ، وهي من عواصم الصين العريقة ، حيث كانت قبل ذلك عاصمة لحكومة الكومنتانج ون قد تطورت صناعاتها تطوراً سريعاً وأصبحت اليوم من أكبر المدن الصناعية .

للمزيد فضلاً انظر : شيو قوانغ ، جغرافيا الصين ، ص ١١٨ .

(٢) مقاطعة تشجيانغ : "أرض الحرير" تقع على الساحل الجنوبي الشرقي للصين ، وتبلغ مساحتها أكثر من ١٠٠٠٠٠ كم مربع وطول ساحلها ٢٢٠٠ كم ، وتشتهر بصناعة الحرير واتاجه ، حيث تنتج ثلث ما تنتجه الصين من الحرير الخام ونسيج الحرير ، وتشتهر أيضاً بوفرة المحاصيل الزراعية مثل الأرز والذرة والقمح والبطاطا والمحاصيل النقدية مثل الجوت والقطن وقصب السكر ، كما تتميز بوفرة الخامات المعدنية الأساسية مثل الحديد والنحاس والفحم والرصاص والزنك وغيرها ، ومن أشهر مدنها هانغتشو ، نينغبو ، وتشو .

للمزيد فضلاً انظر : شيو قوانغ ، جغرافيا الصين ، ص ١١٩ .

(٣) مقاطعة فوجيان : تقع على الساحل الجنوبي الشرقي ، وتبلغ مساحتها ١٢٠٠٠٠ كم مربع ويتركز معظم سكانها في المناطق الساحلية ، كما أنها موطن كثير من المغتربين ، وتتميز بوفرة المحاصيل الزراعية والنقدية ، وتعتبر من أشهر المناطق إنتاجاً للشاي في الصين ، إلى جانب شهرتها بمساحات الغابات الواسعة ، ومن أهم مدنها فوتشو حاضرة المقاطعة ، وشيامن أحد الموانئ الهامة ، وتشوانتشو (التي سماها ابن بطوطة الزيتون) . للمزيد فضلاً انظر : شيو قوانغ ، جغرافيا الصين ، ص ١٢٥ .

(٤) مقاطعة جيانغسى : تقع في الطرف الجنوبي الشرقي من الصين ، وتبلغ مساحتها أكثر من ١٦٠٠٠٠ كم متر ، وتعتبر من أهم مناطق إنتاج الحبوب بالصين وأهم محاصيلها الأرز وهو يشكل ٨٠ بالمائة من إجمال ما يزرع من الحبوب الغذائية إلى جانب وفرة الثروات المعدنية بها ، ومن أشهر مدنها نانتشانغ حاضرة المقاطعة ، ومدينة جيو جيانغ وهي ميناء بحري هام ، ومدينة جينغتشن والتي تسمى عاصمة الخزف لشهرتها بصناعة الخزف ووفرة مادته الخام .

للمزيد فضلاً انظر : شيو قوانغ ، جغرافيا الصين ، ص ١٢٩ .

(٥) محمود يوسف لي هوان ، المرجع السابق ، ص ٤٥ .

(٦) مهذب رحلة ابن بطوطة المسماه " تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار " تهذيب احمد العوامري بك ومحمد أحمد جاد

المولى ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٣٣ ، ص ٢٥٢ .

(٧) ابراهيم فنغ جين يوان ، المرجع السابق ، ص ١٣٩ .

اختار تشنغ خه موقعاً مميزاً في نانجينغ ؛ لبناء السفن العملاقة ، وشرع الصانع في العمل ؛ لتحقيق الهدف المرجو ، فاستطاعوا خلال عامين من إنجاز ١١٨٠ سفينة مختلفة الأشكال والأحجام . أشهر هذه السفن كانت تسمى " سفن الكنوز " وهي سفن بنيت خصيصاً لتحمل كميات كبيرة من الحرير ، والخزف الصيني ، والذهب ، والأعمال الفنية ، كهدايا إمبراطورية ستقدم إلى ملوك وسلطين البلاد التي سيزورها الأسطول (١) .

وكانت كل سفينة من هذه السفن تسع لـ ٥٠٠ رجل ، وطولها يبلغ ١٣٨ متر وعرضها ٥٦ متراً وهذا النوع من السفن لم يكن له مثيل في العالم آنذاك ، وهذا دليل على التطور الذي وصلت إليه صناعة السفن في الصين في ذلك الوقت (٢) .

وصف الرحلات

الرحلة الأولى : ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م - ٨١٠هـ / ١٤٠٧م

في ١١ يوليو ١٤٠٥ قاد تشنغ خه أسطوله الكبير ، والذي كان يضم ٣١٧ سفينة تشتمل على ٦٢ سفينة كنوز ، والباقي أنواع أخرى من السفن ، كسفن الخيول ، سفن التزويد ، سفن الجنود وكان نظام هذه السفن كالتالي : سفن الخيول : وكانت بطول ٣٧٠ قدم وعرض ١٥٠ قدم ، ولم تكن تحمل خيولاً فقط ، بل كان على متنها أيضاً عدد كبير من العمال ؛ لإصلاح وترميم الأسطول في البحر إذا احتاج ، أما الخيول فكانت بهدف الاتجار فيها . سفن التزويد : وهي سفن ذات سبع صواري ، وكانت بطول ٢٤٠ قدم وبعرض ١٢٠ ، وكانت تضم كميات كبيرة من الطعام يكفي لمدة طويلة من الحبوب وغيرها ، إلى جانب كميات من اللحوم والأسماك والخضروات والفاكهة كان يتم التزود بها بعد كل توقف .

سفن الجنود : كان الأسطول مزوداً بنوعين من سفن الجنود :

الأول : كانت سفن بخمس صواري و بطول ١٨٠ قدم ، وبوعاء يحمل على الأقل أربعة مدافع من البرونز بقاذفات يصل مداها إلى حوالي ٨٠٠ أو ٩٠٠ قدم ، إلى جانب عشرة مدافع أخرى بقدرة أقل ، بالإضافة إلى كميات كبيرة من القاذفات والقنابل .

الثاني : كانت سفن أصغر ولكنها أسرع ، وكانت بطول ١٢٠ قدم ، ومزودة بمجاديف ، وتستخدم لمواجهة ومطاردة القراصنة .

إلى جانب ذلك كان الأسطول مزوداً بخزانات مياه كبيرة عملاقة ، تملأ بالمياه العذبة لتكفي الرجال لشهور في البحر ، كما كانت هناك سفن مخصصة لجلب المياه العذبة في كل محطة يقف فيها الأسطول لإعادة ملئ الخزانات (٣) .

كان على متن أسطول تشنغ خه ٢٧٨٧٠ رجل عبارة عن جنود وعدد كبير من علماء الفلك ، والجغرافيا ، إلى جانب تجار وكتاب ومؤلفين ، وصناع عسكريين ومدنيين وركاب وربانة وأطباء ومرجمين (٤) .

انطلق اسطول تشنغ خه من ميناء " ليوجيا " (٥) القريب من مدينة " سوتشو " بمقاطعة " جيانغسو " وشق عباب فخر اليانغتسي ؛ ليخرج من مصبه ، ثم اتجه إلى سواحل البحر الشرقي جنوباً ، فبدأ تشنغ خه رحلته البحرية الأولى في المحيط

(1) Arnold Schrier : the Eunch and the Giraffe , p .12 .

(٢) ابراهيم فنج جينغ يوان ، المرجع السابق ، ص ١٣٦

(3) Ma Huan : " Ying-Yai shang-lan " : " The overall survey of the ocean,sshores " , translated and edited by J.V.C Mills ,Cambridge Univeristy press , 1967 , p.10.

(4) Arnold Schrier : the Eunch and the Giraffe , p .12 .

(٥) قوه ينغ ده ، المرجع السابق ، ص ٤٥ .

الهندي ، ووصل هذا الأسطول الضخم إلى " تشانتشنغ " (جنوبي فيتنام) أولاً ، ثم "جاوة " و جيوقانغ وسومطرة (في إندونيسيا) ، ومالابار ، وكولي (على ساحل المحيط الهندي) ، وسيلان وغيرها (١).

وأهدى (تشنغ خه) أمراء البلاد التي مر بها أسطوله هدايا نفيسة من الحرير المطرزة بالذهب. وفي طريق عودته، رافقه مبعوثون من كاليكوت وسيموديرة وكيلون وعاروه ومالقا وممالك أخرى ، وقدّموا له هدايا من منتجات بلادهم (٢) . ولم تكن رحلة تشنغ خه سهلة ، فقد واجه اختباراً صعباً عند مروره بالقرب من مضيق "مالقا" حين واجه هجوماً عنيفاً شنه القرصان " تشن تسو ي " الصيني الأصل ، الذي هرب من الصين واستطاع السيطرة على سفن ميناء "المبانج" أكبر مدن " سومطرة " ، وجمع عصابة من القراصنة كان يهدد بها أمن السفن التجارية المارة بهذا المكان ، واكتسب شهرة واسعة كقرصان شرس لا يقاوم (٣) .

فشبت معركة حامية الوطيس بين تشنغ خه وقواته من جهة وبين زعيم القراصنة وقواته من جهة أخرى، حقق فيها تشنغ خه انتصاراً كبير وقُتل ما يزيد على خمسة آلاف من القراصنة، وأخذ " تشن تسو ي " أسيراً إلى الصين وأُعدم في نانكين. وغنمت قوات تشنغ خه ١٧ مركباً. وعاد الأسطول إلى العاصمة في ٢ تشرين الأول عام ١٤٠٧ بعد تأخر ثلاثة أشهر عن الميعاد بسبب قتال القراصنة (٤) .

لقد كان لهذا الانتصار أثراً كبيراً تمثل في السمعة الكبيرة التي كسبتها أسرة مينغ كقوة عظيمة في المحيط الهندي ، كذلك أصبح السفر آمناً في مضيق مالقا بعد القضاء على القراصنة ؛ فازداد عدد السفن التجارية المارة بهذا الطريق . أما تشنغ خه فقد ارتفعت مكانته عند الإمبراطور بعد نجاحه بامتياز في مهمته ، خاصة أنه قدم تقريراً إلى الإمبراطور عن نتائج الرحلة ، كما قدم كميات كبيرة من الجواهر ، والحجار الكريمة ، والمعادن ، والتوابل ، والنباتات الطبية التي جمعها خلال رحلته ، كما أكد للإمبراطور أن منطقة جنوب شرق آسيا ؛ أصبحت تقدر قوة أسرة مينغ وان هيبتها زادت بشكل ملحوظ (٥).

الرحلة الثانية : ٨١٠هـ / ١٤٠٧م - ٨١٢هـ / ١٤٠٩م

كان الإمبراطور " يونغ لي " سعيداً بنتائج الرحلة الأولى أياً سعادة ، ولكن هذه النتائج وضعت على كاهله عبئاً جديداً تمثل في ضرورة ان تحافظ الصين على ما اكتسبته من سمعة جيدة ، كما أدرك أنه بإمكانه توسيع دائرة علاقاته التجارية مع البلدان الأخرى ؛ لذلك قرر إيفاد البعثة الثانية.

رسمياً كان سبب الرحلة هو إعادة السفراء الأجانب لبلادهم ، وصدر مرسومها في ١٣ أكتوبر ١٤٠٧ ، وقد أمر الإمبراطور "يونغ لي" تشنغ خه بإعداد هذه الحملة لكنه لم يصحبها ، فقد بقي لمهمة خاصة ، حيث لمس أثناء رحلته الأولى مشكلة كبيرة تمثلت في صعوبة التواصل مع سكان البلاد التي زارها ؛ لذلك بقي تشنغ خه للإشراف على تأسيس

(١) لماذا اختار تشنغ خه ميناء " ليوجيا " لبحر منه ؟ يؤكد المؤرخون الصينيون أن هذا الاختيار يعود إلى خمسة أسباب: أولاً: أن هذا الميناء ثغر ممتاز. ميناء ليوجيا من الموانئ الصينية القديمة المشهورة داخل الصين وخارجها، كأنه حنجر البحر وباب الأنهار والبحيرات. قبل ذلك كان يحمل لقب "ميناء الدول الست، وأول ميناء في الدنيا".

ثانياً: منطقة هذا الميناء غنية، سهلة المواصلات، كثيرة الموارد الطبيعية، فهي موطن نموذجي للسلك والأرز بجنوب نهر اليانغتسي.

ثالثاً: به عدد كبير من المؤهلين، حيث كان في المنطقة عدد كبير من الملاحين وقادة السفن.

رابعاً: منطقة الميناء موقع تجاري يتجمع فيه التجار والبضائع، يسهل تزويد الأسطول بالمواد والأجهزة.

خامساً: الميناء قريب من مدينة نانجينغ عاصمة أسرة مينغ في بداية أسرة مينغ، مما يسهل الاتصال بين البلاط الإمبراطوري والأسطول.

شبكة الصين ٨ يوليو ٢٠٠٥

(٢) محمود يوسف لي هوانين ، المرجع السابق ، ص ٤٥ .

(3) Arnold Schrier : the Eunch and the Giraffe , p .12

(4) Arnold Schrier : the Eunch and the Giraffe , p .12

(5) Arnold Schrier : the Eunch and the Giraffe , p .13 .

مدرسة لتعليم لغات بلاد جنوب شرق آسيا والهند وبلاد العرب ، وكانت اللغات التي تدرس في هذه المدرسة هي "العربية ، الملاوية ، الفارسية ، السنغيزية — لغة السنغاليز سكان شمال الهند — " وهي كلها لغات سيحتاجها أسطول تشنغ خه ؛ لتسهيل التبادلات التجارية في المحيط الهندي(١).

وقد بقت الحملة من اكتوبر ١٤٠٧ حتى يناير ١٤٠٨ تنتظر الرياح المناسبة ، ثم انطلقت ، وكانت تضم ٢٤٩ مركب ، وكانت أولى محطاتها " تايلند " ثم " جاوة " و " لمبري " و " كايال " وانتهت بـ " كاليكوت " في الهند وكانت مدتها من يناير ١٤٠٨ حتى ابريل ١٤٠٩ ثم عاد الأسطول إلى الصين في أواخر صيف ١٤٠٩ (٢).

الرحلة الثالثة : ٨١٢هـ / ١٤٠٩م - ٨١٤هـ / ١٤١١م

صدر مرسوم هذه الحملة في ديسمبر ١٤٠٩ وتولى تشنغ خه قيادة هذه الحملة ، وكانت تضم ٤٨ سفينة على متنها ٣٠٠٠ رجل ، وزارت هذه الرحلة " تشامبا ، جاوة ، سيموديرة — في إندونيسيا — ، سيلان ، كوشين ، وأخيراً كاليكوت " وثناء توقف الأسطول في سيرلانكا ؛ دشن تشنغ خه نصباً صخرياً ، نقش عليه تاريخ وصوله إلى هذا المكان ، وكان النقش بثلاث لغات هي " الصينية ، الفارسية ، والتاميلية — لغة السكان المحليين — " وقد اكتشفت هذه اللوحة عام ١٩١١ ، وهي الآن موجودة في متحف سيرلانكا(٣).

وتذكر المصادر انه في طريق عودة أسطول تشنغ خه نشبت معركة قوية بين وبين قوات الملك " أغاكورنار " زعيم مملكة " راينغاما " قرب مدينة كولومبو. وانتصر تشنغ خه بعد قتال مرير ، وأسر الملك وزوجه وأبنائه وموظفيه الكبار ، واقتادهم أسرى إلى الصين التي عاد إليها في ٦ تموز عام ١٤١١م. فعفا الإمبراطور عن الملك المذكور وأعادته إلى مملكته(٤).

لقد برهنت هذه المعركة على المقدرة الفائقة التي كان يتمتع بها تشنغ خه ، حيث استطاع ان يهزم جيش قيل ان تعداده كان ٥٠٠٠٠ جندي ، كذلك اصبحت قوة الصين في المحيط الهندي لا تقاوم ، با اصبحت كل من يفكر في مواجهة الأسطول الصيني ، عليه أن يفكر كثيراً قبل ان يقدم على هذه الخطوة .

الرحلة الرابعة : ٨١٦هـ / ١٤١٣م - ٨١٨هـ / ١٤١٥م

صدر مرسوم هذه الرحلة في ١٨ ديسمبر ١٤١٢ وقادها تشنغ خه وكانت تضم ٦٣ مركباً وعلى متنها ٢٨٥٦٠ رجلاً وانطلقت من نانكين في خريف ١٤١٣ ومرت هذه الرحلة بـ " تشامبا ، جاوة ، بالمبانغ ، مالقا ، سيلان ، كايال ، كاليكوت ولأول مرة هرمز " وكانت هذه هي المرة الأولى التي يتجاوز فيها أسطول تشنغ خه الهند(٥). كانت نقلة كبيرة لأسطول تشنغ خه ان يتخطى الهند إلى مدخل الخليج الفارسي ويصل إلى هرمز(٦) ، وهذا إن دل دل فإنما يد على الثقة الكبيرة التي اصبحت تشنغ خه يتمتع بها ، فاصبح ينطلق في المياه الواسعة دون ان يخشى أحد . ومما

(1) Ma Huan : " Ying-Yai shang-lan " , p. 10

(2) Sally K.Church :Zheng He: an investigation into the plausibility of 450-FT Treasure ships , Monumenta serica , Journal of oriental studies , 2005 , p.12.

(3) Hsiao Hung-Te : Fleet and Wall 1405-1433 , the Zheng He expedition and Ming Empire Policy , faculty of Asian studies , Australian National University , 2003 ,p.6.

(4) Ma Huan : " Ying-Yai shang-lan " , p. 10.

(5) Ma Huan : " Ying-Yai shang-lan " , p. 11.

(٦)هرمز : مدينة على بحر فارس ، وهي فرضة كرمان إليها ترفأ المراكب ومنها تنقل أمتعة الهند إلى كرمان وسجستان وخرسان ومن الناس من يسميها هورموز بزيادة الواو . للمزيد انظر : ياقوت الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي) : معجم البلدان ، دار صادر ،

بيروت ، ١٣٩٧/١٩٧٧ ، المجلد الخامس ، ص٤٠٢

عزز هذه الثقة انه كان كلما حل بمكان تتوافدت عليه رسل الملوك والسلاطين تقدم له الهدايا المتنوعة التي شملت العاج والذهب والكهرمان والمسك والآلات .

وفي هذه الرحلة أمر تشنغ خه أحد مساعديه بالسفر إلى البنغال بعدد من سفن الأسطول ، فاستقبله حاكمها الشاب ، ورحب به ترحيباً حاراً وأهداه " زرافة " كانت قد اهديت له من حاكم "ماليندى " — في كينيا اليوم — (١).

عندما عاد الأسطول إلى الصين لم يكن الصينيون قد رأوا من قبل هذا الحيوان " الزرافة " النبيل صاحب العنق الطويل ، وعندما عرض العائدون على الإمبراطور نتائج رحلتهم ووصفوا له " الزرافة " كان مسروراً أشد السرور بسبب الوصف الجميل الذى قيل له عن هذا المخلوق العجيب . والسبب فى ذلك أن كلمة " الزرافة " كانت تنطق بلغة الصينيين " جى رن " وهو نطق قريب جداً من الاسم الصينى " تشى رن " وهو اسم لحيوان أسطورى يشبه وحيد القرن ، وطبقاً للثقافة الكونفوشوسية فإن " تشى رن " يظهر فقط فى أوقات السلام العظيم ، ويدل على ان شخصاً حكيماً وعظيماً يتولى أمر الصين فى هذا الوقت (٢).

وتخليداً لهذا الحدث أمر الإمبراطور برسم صورة للزرافة العجيبة ووضعها فى القصر الإمبراطورى ، ومازالت هذه الصورة موجودة إلى الآن (٣) .

نتيجة لهذه الرحلة ؛ قدمت إلى الصين وفود من ١٩ بلد ، من تشامبا فى تايلند حتى "مالينى " على الساحل الشرقى لإفريقيا ، كانت هذه الوفود بهدف تقديم الهدايا للإمبراطور وعقد صلات وعلاقات تجارية مع الصين ، لكن أبرز الوفود كان وفد ماليندى الذى قدم " زرافة " كهدية للإمبراطور (٤).

الرحلة الخامسة : ٨٢٠هـ / ١٤١٧م - ٨٢٢هـ / ١٤١٩م

صدر مرسومها فى ١٨ ديسمبر ١٤١٦ وكان هدفها الأول هو حراسة سفراء البلدان الذين أتوا إلى الصين أثناء عودتهم ، وهدفها الثانى هو تقديم هدايا الإمبراطور الصينى إلى تلك البلدان ، إضافة إلى زيارة بلدان أخرى ، فزار الأسطول الصينى " تشامبا ، جاوة ، بالمبانج ، مالقا ، سيموديرة ، سيلان ، كاليكوت ، هرمز ، عدن ، مقديشيو ، براوة ، ماليندى " وكانت هذه هى المرة الأولى التى يصل فيها أسطول تشنغ خه إلى الساحل الشرقى لإفريقيا (٥) . وخلال رحلة تشنغ خه هذه اكتسبت الصين سمعة غير عادية فى ساحل إفريقيا الشرقى ، كما وصف الإمبراطور الصينى بأنه شخص غير عادى ، وتقديراً لهذا الإمبراطور أعطى الأفارقة تشنغ خه مزيداً من الزرافات والحيوانات الأخرى مثل الأسود والنمور والنعام والحمار الوحشى ووحيد القرن والطباء . وعند عودة تشنغ خه ؛ تم وضع هذه الحيوانات فى حديقة حيوانات أعدت خصيصاً لها (٦).

أما عدن التى وصلها الأسطول لأول مرة ، فتذكر المصادر الصينية أنها كانت قد أرسلت بعثة إلى البلاط الصينى عام ١٤١٦ ومعها بعض المنتجات المحلية ، لما استأذنت فى العودة أمر الإمبراطور ، تشنغ خه أن يسافر مصطحباً معه أعضاء

(1) Arnold Schrier : the Eunch and the Giraffe , p . 13 .

(2) Arnold Schrier : the Eunch and the Giraffe , p . 14 .

لقد كان وصول الزرافة إلى الصين فى هذا الوقت بالتحديد أمراً فسرهُ الإمبراطور على انه مؤشر للنجاح السعيد والعهد الزاهر ، ومما عمق هذه الفكرة فى ذهن الإمبراطور ، الوصف الأسطورى الذى أبداه الخصبان للإمبراطور عن هذا الحيوان ، وأنه دليل على عطف السماء واستحسانها لأعمال الإمبراطور ودليل أيضاً على انه لا مثيل له من الحكام على وجه الأرض . ويبدو انما كانت محولة منهم لاكتساب عطف الإمبراطور والتقرب منه

(٣) فضلاً انظر الملاحق صورة الزرافة المذكورة .

(4) Arnold Schrier : the Eunch and the Giraffe , p . 14 .

(5) Ma Huan : " Ying-Yai shang-lan " , p . 11 .

(6) Arnold Schrier : the Eunch and the Giraffe , p . 14

البعثة ، وحاملاً معه قطعاً من العملات هدية إلى " ناصر " حاكم عدن (١) ؛ فقدمت عدن عام ١٤١٧ زرافة وكلباً وأسداً هدية لإمبراطور الصين (٢) .

يبدو من النص السابق ان العلاقات بين الصين وعدن كانت علاقات طيبة لا تشوبها شائبة ، رغم ما أوردته بعض المصادر العربية من أنه كان ثمة معركة نشبت بين الأسطول الصيني واسطول عدن قبالة شواطئ عدن ، استطاع فيها أسطول عدن هزيمة الأسطول الصيني رغم قوته الهائلة (٣) . لكن ربما ان هذا الحادث وإن صح كان قبل هذه البعثات وأن العلاقة تحسنت بعد ذلك ، فأخذت البعثات تترى بين الجانبين .

الرحلة السادسة : ٨٢٥هـ / ١٤٢١م - ٨٢٦هـ / ١٤٢٢م

صدر مرسومها في ٣ مارس ١٤٢١ ، وأعيد فيها سفراء هرمز وغيرها من البلدان بعد فترة أمضوها في الصين ، وكانت هذه الرحلة تضم ٤١ مركباً ، وكانت مدتها صغيرة نسبياً حوال عشرة اشهر . وفيها أرسل تشنغ خه أحد مساعديه بثلاثة مراكب إلى السلطان الناصر سلطان عدن(٤).

وقد ورد في تاريخ أسرة مينغ مانصه : " لما وصل تشنغ خه إلى عدن للمرة الثانية ؛ أمر سلطانها (ناصر) رجالاً من حاشيته بأن يسافروا إلى الصين ؛ ليقدموا الهدايا فوصلوا إلى عاصمة الصين عام ١٤٢٣ ثم قفلوا عائدين بعد فترة وجيزة (٥) .

أما بدر الين الصيني فيذكر في كتابه " العلاقات بين العرب والصين " أنه في عام ١٤٢١ سافر أمير من أمراء الصين من عائلة "تشو" إلى عدن ، فحصل في سوقها على "عين الهرة" بلغ وزنها مثقالين ، ومرجاناً بلغ علوه زراعين ، فرجع بهما إلى جانب أشياء نادرة كاللالي واليواقيت مختلفة الأشكال والألوان (٦) .

(١) السلطان الناصر أحمد سلطان عدن (١٤٠٠-١٤٢٤) : هو احمد بن اسماعيل بن علي بن داود بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول احد كبار سلاطين بني رسول ، ولد ليلة السبت حادى عشر من شعبان سنة ثمان وسبعين وسبع مائة ، وتولى السلطنة بعد موت ابيه وكان عمره وقتها أربع وعشرون سنة ، واستطاع ان يقضى على الفتن التي ظهرت في بداية حكمه وافر الأمن حتى ملك ما لم يملكه آباؤه ، كماهتم بالحياة العلمية والدينية فوفد إليه الدباء والعلماء من مختلف البلاد ، إلى جانب ذلك شهد عهده ازدهار للعلاقات الخارجية مع البلدان المختلفة مثل مصر وبلاد الحبشة وبلاد الهند والصين .

للمزيد فضلاً انظر : القرينى(تقى الدين احمد بن علي) (٧٦٦-٨٤٥) درر اعقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة ، جمعه وعلق عليه محمود الجليلي ، دار الغرب الإسلامي ، ٢٠٠٢/١٤٢٣ ، ٣٣٢/١ .

(٢) قوه ينغ ده ، المرجع السابق ، ص-٤٥ .

(٣) ذكر ابن المقرئ الشاعر اليمني في إحدى قصائده التي كان يمدح فيها السلطان الناصر وصفاً للمعركة المذكورة فقال :

فقل للملوك الصين كيدوا بغيرها	وأضعف بكيد كاد عبد به الربا
بنوها حصوناً بل قرى ومساكناً	من السفن يجريها من الريح ما هبا
يسموها زنكاً ومعناه أنها	على البحر لا تخشى من البحر إن عبا
ترى اللوح منها سمكه مثل عرضه	زراعاً يشج الشعب إن صدم الشعب
فأرسلت فيها من سعودك فيلقاً	فمزقها شرقاً ومزقها غرباً
وفي عدن قامت عليهم قيامة	وقد ركبوا في قصدها المركب الصعب

للمزيد فضلاً انظر ابن المقرئ (شرف الدين أبي الذبيح اسماعيل بن أبي بكر المقرئ اليمني الشافعي) (ت ٨٣٧) الديوان المسمى الشرف الوافي ، طبع بمطبعة نخبة الحيار ، بموabay ، الهند ، ١٣٠٥هـ ، ص-١٩٢ .

وعلى الرغم من المبالغات التي قد يسوقها الشعراء عند مدح حكامهم للفوز بقرهم ، إلا انه ليس من المستبعد حدوث مثل هذه المعركة خاصة ان الشاعر وصف المراكب الصينية وصفاً يكاد يكون قريباً من الحقيقة المعروفة عنها .

(4) Ma Huan : " Ying-Yai shang-lan ", p.11

(٥) قوه ينغ ده ، المرجع السابق ، ص-٤٧

(٦) بدر الدين حى الصيني : تاريخ المسلمين في الصين في الماضي والحاضر ، دار الإنشاء والطباعة ، طرابلس ، ١٣٩٤هـ ، ص-٢٣٦ .

وهذا يؤكد أن العلاقات بين الصين وعدن كانت متينة في تلك الفترة ، وإلا ما رأينا مثل هذه البعثات الرائحة والغادية بين الجانبين .

الرحلة السابعة والأخيرة : ٨٣٥هـ / ١٤٣١م - ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م

بعد عودة الرحلة السادسة بثلاث سنين وتحديدًا عام ١٤٢٤ توفي الإمبراطور القوي "يونغ لي" ، وتولى الحكم من بعده الإمبراطور "تشن تسونغ" وكان ليس كسلفه محب للمغامرة ولديه طموح ، بل على العكس كان معارضاً للرحلات البحرية ، وليس هذا فقط بل كان مستاءً من الشهرة والمكانة التي بلغها تشنغ خه في عهد سلفه ؛ لذلك كان أول قرار له هو إيقاف الرحلات البحرية، ثم نقل تشنغ خه إلى نانكين ليعمل قائداً للحامية العسكرية في نانكين (١) . ولكن بعد شهور قليلة ؛ توفي هذا الإمبراطور ، فتولى الحكم من بعده الإمبراطور "تشوانغ تي" والذي لم يفكر في استئناف الرحلات البحرية إلا بعد ست سنوات من حكمه، بعدما انفض السفراء عن الصين وتراجعت عائدات التجارة الخارجية بشكل ملحوظ ؛ فقرر عودة الرحلات مرة أخرى (٢) .

صدر مرسوم هذه الرحلة في ٢٩ يونيو ١٤٣٠ ، وضمت أكثر من مائة مركب على متنها ٢٧٥٥٠ شخصاً ما بين ضباط وجنود وحرفيين وأطباء غيرهم . وانطلق الأسطول من ميناء "ليوجيا" في ٣ فبراير ١٤٣١ ومرت بـ تشامبا في (يناير ١٤٣٢) وبسورابايا (٧ مارس) وبالمبانغ (٢٤ يوليو) ومالقا (٣ أغسطس) وسيموديرة (٢٨ أكتوبر)، وانتهت إلى كاليكوت في ١٠ ديسمبر عام ١٤٣٢م. وانتقلت إلى هرموز ووصلتها في ١٧ يناير عام ١٤٣٣م. (بعد سير ٣٥ يوماً في البحر). وكر الأسطول عائداً في ١٩ آذار عام ١٤٣٣ عبر بحر العرب، فوصل إلى كاليكوت في ٣١ آذار، ثم مر بسيموديرة (٢٥ نيسان)، فمالقا، فكون لون، فكوي خون في شبا، وفي ٢٢ تموز كانوا في بكين. تروى المصادر الصينية أن تشنغ خه زار لاسا في جنوب جزيرة العرب، وذهب مبعوثه إلى ظفار ولاسا وعدن ومكة في جزيرة العرب. وكان الخصى "قونغ" (٣) أحد مساعدي تشنغ خه يقود فرقة من الأسطول في كاليكوت. وأرسل سفارة ضمت ماهوان (٤) إلى مكة. كذلك جرت مراكب أخرى من هرموز إلى عدن والموانئ الإفريقية، وربما إلى لاسا. ويقال أن بعض المراكب انفصلت عن الأسطول في كاليكوت وأتت إلى البنادر العربية (٥) .

وقد اختلفت المصادر التاريخية فيما بينها حول ما إذا كان تشنغ خه قد ذهب إلى مكة أم أنه أرسل مساعده "ما هوان" ببعض السفن ، لكن الرأي الراجح ان تشنغ خه بقى مع أسطول لغنها بعض الأمور التجارية وبعث ما هوان بعدد من السفن إلى مكة ، فلقاه أميرها الشريف بركات عام ٨٣٦هـ / ١٤٣٣م (٦) .

(1) Ma Huan : " Ying-Yai shang-lan , p .24.

(2) Arnold Schrier : the Eunch and the Giraffe , p .15 .

(٣) الخصى قونغ :من واليد محافظة "تايتسانغ" في "جيانغسو" ، وقد سبق له ان تدى الخدمة العسكرية في حامية تايتسنغ ، وقد وقع عليه الاختيار للإشتراك في الرحلات ، فرافق تشنغ خه اربع مرات ، حيث اطلع على سلوك الناس وعاداتهم وتقاليدهم ومتحاقم في البلدان التي زارها فأودع ذلك كله في كتاب من جزئين اسماه " تجولات في اقاصى الأرض " للمزيد فضلاً انظر : فوه ينغ ده ، المرجع السابق ، ص٥٢ .

(٤) ماهوان :ولد حوالي ١٣٨٠ في هويجي بمقاطعة تشجيانغ وينتمى إلى قومية هوى . وقد قطع شوطاً في دراسة اللغة العربية معتمداً على ذكائه واجتهاده ، فأتاح له هذا ان يعمل مترجماً لتشنغ خه خلال رحلاته البحرية الرابعة والسادسة والسابعة وخلال هذه الرحلات سجل كل ما رآه من عادات وتقاليده وشمال ونواقص للأمم التي زارها في كتاب يحمل عنوان " مشاهداتي فيما وراء البحار " يضم ١٨ فصلاً دزنت فيه عادات ومنتجات ومعلومات جغرافية وتاريخية عن ١٩ بلدمنه عدن وظفار ومكة المكرمة . للمزيد انظر : ابراهيم فنغ جينغ يوان ، المرجع السابق ، ص١٣٣ .

(5)Ma Huan : " Ying-Yai shang-lan , p .26

(٦) الشريف بركات : هو بركات بن حسن بن عجلاان بن رميثة السيد زين الدين أبو زهير بن البدر أبي المعالي الحسينى المكي ، ولد سنة إحدى وثمانمائة وقيل التي بعدها ن بالحشافة بالقرب من جدة ، وقرأ القرآن وكتب الخط ونشأ شريف الهمة سنى الفعال جميل الخلاق ، فأشركه والده معه في إمرة مكة بولاية من السلطان وفي سنة تسع وعشرين ارتحل إلى القاهرة والتزم للسلطان بما كان والده التزم به ومن جملة

وقد ورد ذكر هذه البعثة في المصادر العربية ، فذكر ابن تغرى بردى في ترجمته للسلطان الأشرف برسباى (٨٢٥-٨٤١هـ) في حوادث عام ٨٣٦هـ فقال : " ثم في ثلثي عشرين من شوال هذا ، قدم الخير من مكة المشرفة ، بأن عدة زنوك (جنوك) قدمت من الصين إلى سواحل الهند ، وأرسى منها اثنان بساحل عدن ، فلم تنفق بها بضائعهم من الصيني والحرير والمسلك وغير ذلك ؛ لاختلال حال اليمن ، فكتب كبير هذين المركبين إلى الشريف بركات بن حسن بن عجلان أمير مكة وإلى سعد الدين بن إبراهيم بن مرة ناظر جدة ، يستأذن قدومهم إلى جده ، فكتبوا للسلطان في ذلك ورغباه في كثرة ما يتحصل في قدومهم من المال ، فكتب لهم السلطان بالقدوم وإكرامهم " (١) .

لقد كانت رحلة تشنغ خه هذه تهدف إلى استعادة العلاقات التجارية والدبلوماسية بين الصين وبلدان المحيط الهندي وساحل إفريقيا الشرقية وبعض بلاد الجزيرة العربية بعد توقف دام قرابة العشر سنوات . واستطاع تشنغ خه مرة أخرى ان يثبت كفاءته فيها ، حيث استطاع عبور مسافات طويلة جداً ، حتى وصلت سفنه إلى جزيرة العرب وعدد من البنادر العربية ، وعقد صلات تجارية وإحياء العلاقات السابقة ، فكانت رحلته هذه خير ختام لمشواره الطويل الذى بدأه عام ١٤٠٥ واستمر لمدة ثمانية وعشرين عاماً ، حقق فيه نجاحات كبيرة قلما تتكرر على مر التاريخ .

وفاة تشنغ خه وتوقف الرحلات

عاد تشنغ خه من رحلته الأخيرة وهو في سن الثالثة والستين ، وبقي في نانجينغ حتى توفي عام ١٤٣٥ وهو في سن الخامسة والستين ، فدفن تحت السفح الجنوبي لجبل " نيو شو " في الضاحية الجنوبية لمدينة نانجينغ ، وعرف قبره باسم " قبر ما هوى هوى " ومازال أنساله يواظبون على زيارة قبره حتى الآن (٢) .

لقد استطاع تشنغ خه خلال ٢٨ عاماً ان يعبر أكثر من نصف الكرة الرضية وان يجتاز مسافات شاسعة من المياه لم يجتازها احد قبله ، فبسط نفوذ إمبراطور الصين ، واعترفت دول كثيرة بقوة الصين وعظمتها ، وبأن اصينيين أصبحوا سادة البحار .

وبدلاً من ان تستغل الصين هذه المكانة التى وصلت إليها إذ بها تفعل العكس ، حيث امر الإمبراطور الصينى عام ١٤٣٥ بتفكيك ورش السفن العظيمة ، كما انسحبت سفن الصين من البحار ؛ تاركة ورائها فراغاً كبيراً ، ولم تدرك الصين هذا الخطأ الفادح إلا فيما بعد ، حينما جاء المستكشفون الأوروبيون إلى المحيط الهندي (٣) .

ولو أن الصين كان لديها طموح الثروة والسيطرة الذى كان لدى الأوروبيين المستعمرين ؛ لتغيرت خريطة العالم وقتها . وهذا دليل قطعى على ان رحلات تشنغ خه ، كانت رحلات سلمية بغرض مد جسور الصداقة ، وتدعيم أواصر المحبة بين الصين وجيرانها ، ودعم الروابط التجارية ، وتبادل الثقافات . لا الغزو والسيطرة والاستعمار كما زعم البعض .

لكن هناك سؤال يطرح نفسه بشدة وهو لماذا أوقفت أسرة مينغ الرحلات ؟

قال البروفيسور " لي جين مينغ " الأستاذ بمعهد بحوث جنوب شرقي آسيا بجامعة شيامن : " إن أهم أسباب إيقاف النشاطات الملاحية بعد تشنغ خه هو أن كل هذه النشاطات كانت تسيطر عليها السلطة الإمبراطورية ، مما وضع النهاية المأساوية لإيقافها . وكانت الأسباب الملموسة كما يلي :

عشرة آلاف دينار في كل سنة على ان ما جرت به العادة من مكس جده يكون له دون ما تجدد من مراكب الخنود فإنه للسلطان خاصة فولها في آخرها ، فحسنت سيرته وعم الناس في ايامه المن والرخاء . وكان شهماً عارفاً بالأمور فيه خير كثير ، واحتمال زائد وحياء ومروءة طائلة وله بمكة مآثر وقرب نافعة ، مات في شعبان سنة تسع وخمسين ، فغسل وكفن وطيف به حول الكعبة سبعاً ثم دفن بالمعلاة في مشهد عظيم للمزيد فضلاً انظر : السخاوى (شمس الدين محمد عبد الرحمن بن محمد) المتوفى ٩٠٢هـ : الضوء الامع لأهل القرن التاسع ، ضبطه وحققه عبد اللطيف حسن عبد الرحمن ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م ، ٣/١٢ .

(١) ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكى) (ت ٨٧٤هـ) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، الهيئة العامة لقصور

الثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٨ ، ١٤/٢٦٢ .

(٢) ابراهيم فنج جينغ يوان ، المرجع السابق ، ص ١٣٢

(3) Arnold Schrier : the Eunch and the Giraffe , p .15

أولاً : كان أسطول تشنغ خه يضم عددا ضخما من العسكريين والعاملين ويتكلف أموالا ضخمة، ويحمل في كل رحلة هدايا غالية، بينما كانت الهدايا والعائدات الضخمة التي تأتي من خارج البلاد تقدم إلى البلاط الإمبراطوري والأرستقراطيين ليمتعوا بها، فضعفت خزانة الدولة في أسرة مينغ التي كانت تدعم رحلات تشنغ خه. لذلك لم تستطع هذه "التجارة الخاسرة" المخالفة لقانون الاقتصاد أن تستمر.

ثانياً : في بداية أسرة مينغ أثر اشتداد عمليات القرصنة على العلاقات الودية بين أسرة مينغ ودول جنوب شرقي آسيا. كان هدف المرحلة الأولى لرحلات تشنغ خه البحرية فتح الخطوط الملاحية والقضاء على القراصنة اليابانيين، والحفاظ على العلاقات المستقرة مع الدول في البحار الواقعة غرب الصين. بعد رحلات تشنغ خه البحرية السبع، رأى حاكم أسرة مينغ أن الهدف السياسي قد تحقق، والخطوط الملاحية سهلة، ولم تعد نشاطات الملاحة مهمة.

ثالثاً : كان أسطول تشنغ خه ضخما جدا، مما أثار انتقادات من المسؤولين الحكوميين. في كل رحلة كان تشنغ خه يقود ٢٠-٣٠ ألف عسكري وعامل، وأسطوله يتكون من نحو مائة سفينة، وتكون دورة الرحلة طويلة جدا بين ٢-٣ سنوات، والفترة بين كل رحلتين قصيرة، وعدد الموتى والجرحى كثيرا، فكان من الصعب استمرار الرحلات. حسب المعلومات المتاحة، في فترة حكم الإمبراطور يونغ له، بلغ عدد السفن التي صنعت حديثا أو أصلحت نحو ألفي سفينة، وكلفة صناعة كل منها نحو ٧-٨ آلاف أوقية من الفضة، بحاجة لدعم من تمويل ١٣ مقاطعة. لذلك كان نقد مسؤولي البلاط الإمبراطوري كثيرا واشتد الضغط، مما أجبر البلاط الإمبراطوري على إنهاء هذه النشاطات.

رابعاً : كانت معظم الأدوات التي يحتاجها تشنغ خه في رحلاته البحرية من إنتاج القطاعات اليدوية الحكومية، فأصبح الإمداد صعبا يوميا. في فترة حكم الإمبراطورين هونغ وو ويونغ له، كان نحو ٣٠٠ ألف حربي يعملون في قطاعات الحرير والخزف وصناعة السفن الحكومية، وأصبح الاستمرار في إنتاج كميات كبيرة من المنسوجات الحريرية وصناعة السفن للرحلات البعيدة صعبا، فمن الطبيعي صعوبة استمرار الرحلات البحرية. (١) .

نظرة عامة لرحلات تشنغ خه

تعتبر رحلات تشنغ خه عملا أدهش العالم في أوائل القرن الخامس عشر، وتجاوز حجم رحلاته حجم رحلات البحارة الأوروبيين التي جرت بعد قرن تقريبا بغية "الاكتشاف الجغرافي الواسع النطاق". لذلك يعد تشنغ خه رائدا للملاحة من حيث مستوى الملاحة ومنجزاتها بالمقارنة مع البحارة الأوروبيين، وتركت رحلاته تأثيرات هامة في تاريخ الصين و في تاريخ العالم وقتها، ولعبت دورا كبيرا في تواصل الطرق البحرية بين الشرق والغرب وتوثيق العلاقات والتبادلات الودية الصينية والأجنبية ودفع التبادلات الثقافية والاقتصادية.

وفيما يلي ذكر لبعض مآثر هذه الرحلات :

مآثر تشنغ خه في رحلاته البحرية :

دفع الدبلوماسية السلمية

قبل رحلات تشنغ خه البحرية ، كان الوضع الإقليمي حول الصين مضطربا، وطمغى القراصنة في مناطق جنوب آسيا الشرقي وبحر جنوب آسيا، وكانت المواصلات البحرية غير مضمونة. وهذه العناصر غير المستقرة أثرت في سلامة مناطق الصين الجنوبية وصورة أسرة مينغ في العالم واستقرارها وتطورها. ومنذ بداية رحلات تشنغ خه البحرية ، عمل تشنغ خه على تخفيف هذه التناقضات بين مختلف الدول وحافظ على سلامة المواصلات البحرية ، مما ضمن استقرار الصين ومناطق جنوب آسيا الشرقي وجنوبها والسلامة على البحر، ورفع سمعة أسرة مينغ. ومن ذلك يمكن أن نعرف أن هدف رحلات تشنغ خه البحرية هي أداء رسالة السلام ودفع الدبلوماسية السلمية وتحقيق السلام.

توسيع التجارة مع الدول الأجنبية

(١) شبكة الصين ، يوليو ٢٠٠٥

في عهد أسرة مينغ كانت التجارة الرسمية من المهمات الرئيسية لرحلات تشنغ خه البحرية، وهذه التجارة أجريت تحت إشراف حكومتي الطرفين، وهي طريقة هامة لتوسيع التجارة مع الدول الأجنبية. كان تشنغ خه يشحن الهدايا الصينية في سفنه، وإلى جانب ذلك، يشحن النقود البرونزية والحزفيات والأدوات الحديدية وغيرها من المنتجات الصينية الخاصة، وكان إجراء التجارة أحياناً بالنقود البرونزية، ولكن معظمها كان بنظام المقايضة. وخلال الرحلات البحرية، وسع تشنغ خه التجارة مع الدول الأجنبية ملتزماً بمبدأ المساواة والرغبات والتبادل بالتساوي .

الخطوط الملاحية لرحلات تشنغ خه

كانت رحلات تشنغ خه البحرية فتحاً تاريخياً، حيث امتدت خطوطه الملاحية من غربي المحيط الهادي إلى المحيط الهندي لتصل إلى غربي إفريقيا والساحل الأفريقي الشرقي، ورأس الرجاء الصالح في أقصى جنوب إفريقيا، حتى وصلت إلى المحيط الأطلسي. وهكذا فقد شملت المحيطات الثلاثة وهو أمر غير مسبوق في تاريخ الملاحة الصينية، ويحتل مكانة بارزة في تاريخ الملاحة العالمية، لأنها سبقت رحلة فاسكو داغاما التي مرت برأس الرجاء الصالح ووصلت إلى الهند بـ ٨٣ عاماً ورحلة ماغلان العالمية بـ ١٠٧ أعوام. كذلك كان من الأعمال العظيمة لتشنغ خه أن قام بالرحلات معتمداً على السفن الخشبية وقوة الرياح الطبيعية ومتغلباً على أنواع مختلفة من الصعوبات البحرية، وذلك لم يتطلب فقط تكنولوجيا الملاحة وصناعة السفن واستيعاب معارف الملاحة، بل احتاج إلى الجرأة وروح الاستكشاف والمغامرة.

خريطة تشنغ خه البحرية

رسم تشنغ خه في رحلاته البحرية إلى المحيط الهندي خريطة عرفت بعد ذلك باسم "خريطة تشنغ خه" وكان يسترشد بها للدلالة على خط ملاحته وقد سجل فيها ما يتوسط بين شاطئ جنوب شرق الصين والبلدان العربية وغيرها من البلدان من الاتجاهات والخطوط والمسافات والجزر والصخور، وما يتأثر على الشواطئ من الموانئ والمدن والقمم الشاخنة، وما يمكن اعتباره من العالم التي تهدى السفن مثل المعابد والباغودات والجسور وغيرها. وقد ألحقت هذه الخريطة بكتاب "تاريخ الشؤون العسكرية" الذي ألفه "ماو يوان بي" في أسرة مينغ، وهي تعد أقدم خريطة بحرية في تاريخ علم الخرائط الصيني. وتفيد الخريطة بأن رحلة أسطول تشنغ خه ابتدئ من نانجينغ وتنتهي بميناشا على ٤ درجات من خط العرض الجنوبي في كينيا بإفريقيا الشرقية، ويصل عدد الأماكن التي تضمها هذه الخريطة إلى أكثر من ٥٠٠ مكان منها ٣٠٠ مكان في آسيا وإفريقيا؛ لذلك اعتبرت أكمل خريطة لآسيا وإفريقيا ظهرت في القرن الخامس عشر (١).

نشر ثقافة الصين

خلال رحلاته البحرية، قام تشنغ خه بالتجارة مع البلدان الأجنبية، كما كان من أهم أعماله هو نشر ثقافة الصين المتقدمة بحيث كانت التنمية الاجتماعية في بعض دول جنوب آسيا الشرقي وجنوبها وإفريقيا وقتئذ متأخرة نسبياً، واشتاتت هذه الدول إلى معرفة حضارة الأمة الصينية. وقد نشر تشنغ خه بنجاح كبير حضارة الصين كالمراسم والتشريفات وأفكار كونفوشيوس والتقويم ونظام المقاييس والمكاييل والموازين وفنون الزراعة والصناعة والبناء والنقش والطب والملاحة وصنع السفن، وربط بين حضارة الصين وحضارات العالم، فسجل صفحة مشرقة في تاريخ التبادلات الثقافية الصينية - الأجنبية.

وصف البلدان

كتاب ماهوان: "الكامل في وصف سواحل المحيط" YING YAI SHENG-LAN:

هو أحد مساعدي تشنغ خه وقد استغل فرصة وجوده في هذه الرحلات الكبيرة فديج كتاباً. ذكر فيه تعيينه ترجماناً رسمياً لوثائق الحملة الرابعة، وجمع فيه معلومات عن البلدان، ودونها في كتاب عنوانه: "الكامل في وصف سواحل المحيط".

(١) ابراهيم فنغ جينغ يوان، المرجع السابق، ص ١٤٠

وختمه بقوله: "حرره ماهوان، خطاب الجبال في كويشي". و تحدث في كل بلد عن أهله وعن عاداتهم وأديانهم ولباسهم ومأكلهم ومشربهم ومحاصيل أراضيهم، ولا يفوته أن يتكلم عن المناخ (١).

كتاب "في شين" "تجولات في أقاصي الأرض"

وهو أحد مساعدى تشنغ خه وقد سجل في كتابه أحوال أكثر من أربعين دولة ما بين معلومات عامة وأخرى مفصلة عن هذه البلدان إلا أن أهميته تكمن في أنه أورد معلومات عن بلدان لم يأت ذكرها في كتاب ماهوان مثل "الإحساء ومقديشو" (٢).

كتاب "بيانغ سو شنغ" المسمى "سجل بلدان المحيط الهندي"

وهو أحد مستشارى تشنغ خه في الرحلة السابعة، وقد تناول في كتابه أخبار عشرين دولة من مر بهم الأسطول وقال في مقدمته: "إن كل ما ورد في الكتاب، مما شاهدته عيناى وما سمعته وما وصلنى من معلومات" إضافة إلى ذلك شمل الكتاب أيضاً معلومات عن طريقة سير الأسطول في البحر ووظائف كل فئة من الفئات التى على متن الأسطول، وهى من المعلومات المهمة التى لم يرد ذكرها في الكتابين السابقين (٣).

الخاتمة

خلال ٢٨ سنة من عام ١٤٠٥ إلى عام ١٤٣٣، لم تكد تنقطع رحلات تشنغ خه السبع البحرية، ومر أسطوله في كل رحلة بالدول الكبيرة والصغيرة في جنوب آسيا وقرب الهند، الأمر الذي عزز العلاقات بين الصين وهذه الدول وخاصة العلاقات السياسية والاقتصادية المتبادلة. وفيما بعد توافد رسل الدول الأجنبية إلى الصين، وفي ذلك الوقت، كانت أشربة السفن ترفرف على سطح بحر الصين الجنوبي، وتزداد التبادلات بين الصين والدول الأخرى مع مرور الأيام، فخلال رحلات تشنغ خه البحرية، تمت إبادة القراصنة في جيوقانغ (إندونيسيا اليوم)، فتوطدت الاتصالات بين دول المنطقة وأصبحت الطرق البحرية طرقا سالكة.

لقد أحرز تشنغ خه منجزات جديدة في تحديد الخطوط الملاحية وجمع التجارب الملاحية، واحتل خط تشنغ خه الملاحي الذي يبدأ من المحيط الهادي الغربي ويمتد إلى المحيط الهندي ويصل إلى شرقي إفريقيا مركز الصدارة في تاريخ الملاحة العالمي. وكانت رحلاته البحرية باستخدام المراكب الخشبية وبالاعتماد على قوة الرياح تحتاج إلى التغلب على كل الأنواع من الصعوبات وإلى فن الملاحة وفن صنع السفن والخبرات الملاحية واستيعاب المعارف البحرية والجرأة وروح الاستكشاف، وهذا كله أرسى أساسا للملاحة التي قام بها الصينيون فيما بعد..

لقد شقت رحلات تشنغ خه البحرية السبع واستكشافه خطوط المواصلات البحرية، مما شكل شبكة مواصلات بحرية متكاملة. ووصلت رحلاته الثلاثة الأولى إلى شرقي الهند وأقصاها إلى قولي - ميناء هام للتجارة بين الشرق والغرب في العصور القديمة، ووصلت رحلته الرابعة إلى غربي آسيا ومناطق شرقي إفريقيا. وشملت خطوط تشنغ خه الملاحية الرئيسية ٥٦ خطا طول كلها ١٥٠٠٠ ميل.

كانت رحلات تشنغ خه السبع البحرية هي تحول هام من "طريق الحرير البري" إلى "طريق الحرير البحري"، وهي كذلك معجزة في تاريخ الملاحة. إن تشنغ خه بحار يمتاز بالروح الجريئة والعطاء والروح الاستكشافية النادرة. وقد فتحت رحلاته قرنا كاملا شهد عمليات الإبحار في مشارق العالم ومغاربه.

كانت رحلات تشنغ خه السبع البحرية تهدف إلى الدبلوماسية السلمية، وهي تختلف عن رحلات كولمبوس (١٤٥١-١٥٠٦) لاكتشاف أمريكا والتي جلبت المصائب للشعب المحلي اختلافا كبيرا. كذلك تختلف عن رحلات دييما

(1) Ma Huan : " Ying-Yai shang-lan , p .26

(٢) قوه ينغ ده ، المرجع السابق ، ص٥٢

(٣) قوه ينغ ده ، المرجع السابق ، ص٥٣

(١٤٦٩-١٥٢٤) التي ارتبطت بالعدوان ونهب الثروات ويكفي لكي ندرك الفرق بين ذكرى تشنغ خه وغيره أنه مازالت بلاد كثيرة تحيي ذكرى زيارته لها وتعتبرها رمزاً للصداقة ؛ لذلك فهو جدير بأن نطلق عليه رسول السلام .
الملاحق



ملحق رقم (١) رسم تصويري للإمبراطور "يونغ لي"
المصدر : <http://albertchine.over-blog.com>

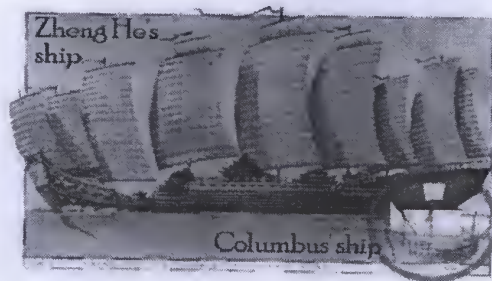
ملحق رقم (٢) المكان الذي كان يتم فيه بناء سفن الكنوز في نانجينغ حالياً

المصدر : p13.ZHeng HE,S voyages Down The Westren Seas ,



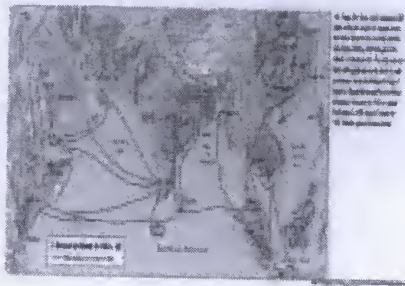
ملحق رقم (٣) صورة توضح الفارق بين إحدى سفن
اسطول تشنغ خه " سفن الكنوز " وسفينة كولومبس

المصدر : <http://people.cohums.ohio-state.edu>



ملحق رقم (٤) خريطة توضح رحلات تشنغ خه السبع

المصدر : <http://www.mahalo.com>



ملحق رقم (٥)

خريطة توضح رحلات تشنغ خه بالتفصيل

المصدر : <http://people.cohums.ohio-state.edu>



ملحق رقم (٦) خريطة تشنغ خه التي تعتبر الخريطة البحرية الاولى في تاريخ الصين في القرن الخامس عشر . المصدر :

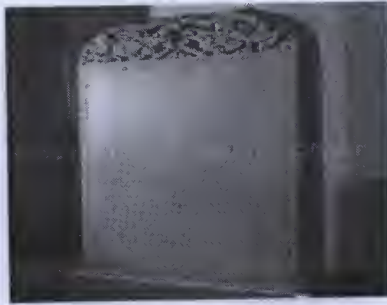
<http://www.maporama.com/zheng-he-map-in-15th-century/>



ملحق رقم (٧)

النصب الصخري الذي دشنه تشنغ خه في مدينة كولومبو في سيرلانكا وهو الآن في متحف المدينة

المصدر : <http://threeblindmen.photoshelter.com:>



ملحق رقم (٨)

صورة لعملات نقدية خلفتها رحلات تشنغ خه البحرية .

المصدر : <http://hkmal.blogspot.com>



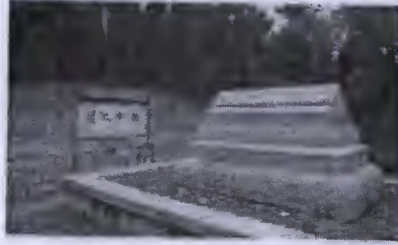
Size: 23.73mm Weight: 3.4g



ملحق رقم (٩) رسم الزرافة التي اهديت للإمبراطور "يونغ لي"
المصدر : <http://eccentricyoruba.wordpress.com>

ملحق رقم (١٠) ضريح تشنغ خه في كونيانغ بمقاطعة يونان

المصدر : <http://mongolschinaandthesilkroad.blogspot.com>



ملحق رقم (١١) معبد سان باو في مالقا أطلق
عليه هذا الاسم لتخليد ذكرى تشنغ خه

ملحق رقم (١٢) مسجد تشنغ خه في اندونيسيا

المصدر : <http://en.wikipedia.org>

المصدر : <http://ayabushkahmar.blogspot.com>



المصادر والمراجع

أولاً المصادر :

- (١) ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكى) (ت ٨٧٤هـ) : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٨ .
- (٢) السنخاوى (شمس الدين محمد عبد الرحمن بن محمد) المتوفى ٩٠٢هـ : الضوء الامع لأهل القرن التاسع ، ضبطه وحققه عبد اللطيف حسن عبد الرحمن ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣ م .
- (٣) ابن المقرئ (شرف الدين أبي الذبيح اسماعيل بن ابى بكر المقرئ اليمنى الشافعى) (ت ٨٣٧) السديوان المسمى الشرف الوافى ، طبع بمطبعة نخبة الخيار ، بموabay ، الهند ، ١٣٠٥هـ .
- (٤) القرينى (تقى الدين احمد بن على) (٧٦٦-٨٤٥هـ) درر اعقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة ، جمعه وعلق عليه محمود الجبيلى ، دار الغرب الإسلامى ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٣/٢٠٠٢ .
- (٥) ياقوت الحموى (شهاب الدين ابى عبد الله ياقوت الحموى الرومى البغدادى) : معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧ م .

ثانياً : المراجع :

- (١) ابراهيم فنج جين يوان ، الإسلام فى الصين ، تعريب محمود يوسف لى هوانين ، دار الهلال الأزرق ، هونج كونج ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٣ .
- (٢) بدر الدين حى الصينى : تاريخ المسلمين فى الصين فى الماضى والحاضر ، دار الإنشاء والطباعة ، طرابلس ، ١٣٩٤هـ
- (٣) تاريخ الصين ، سلسلة سور الصين العظيم ، دار بناء الصين للنشر ، بكين ، الطبعة الأولى ١٩٨٧ .
- (٤) تشو يوان : القوميات المسلمة فى الصين ، ترجمة وجيه هواى وى تشينغ ، دار النشر باللغات الأجنبية ، بكين ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨ .
- (٥) جوزيف نيدهام : موجز تاريخ العلم والحضارة فى الصين ، ترجمة محمد غريب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٥ م .
- (٦) شيوى قوانغ : جغرافيا الصين ، ترجمة محمد أبوجراد ، دار النشر باللغات الأجنبية ، بكين ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧
- (٧) قوه ينغ ده : تاريخ العلاقات الصينية العربية ، ترجمة تشانغ جيا مين ، المركز العربى للمعلومات ، بكين ، ٢٠٠٤ .
- (٨) محمود يوسف لى هوانين : الشخصيات الإسلامية البارزة فى الصين ، دار الهلال الأزرق ، هونج كونج ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٣ .
- (٩) مهذب رحلة ابن بطوطة المسماه " تحفة النظر فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار " تذييل احمد العوامرى بك ومحمد أحمد جاد المولى ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٣٣ .
- (١٠) هيلدا هونخام ، تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى نهاية القرن العشرين ، ترجمة أشرف كيلانى ، المجلس الأعلى للثقافة ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢ .

ثالثاً : المصادر والمراجع الأجنبية

- (1) Arnold Schrier : The Eunch and the Giraffe ,world history bulletin ,Social sciences and philosophy , Arkan Tach Univeresity , 2007.
- (2) Hsiao Hung-Te : Fleet and Wall 1405-1433 , the Zheng He expedition and Ming Empire Policy , faculty of Asian studies , Australian National University , 2003.

- (3) Ma Huan : " Ying-Yai shang-lan " : " The overall survey of the ocean,sshores " , translated and edited by J.V.C Mills ,Cambridge Univeristy press , 1967.
- (4) Sally K.Church :Zheng He: an investigation into the plausibility of 450-FT Treasure ships , Monumenta serica , Journal of oriental studies , 2005.
- (5) Wang Gung Wu : Admiral Zheng He and southest Asia , The opening of relation between China and Malcca ,edited by Leo Suryadinata , institute of Southeast Asian Studies , Singapore , 2005.
- (6) ZHeng HE,S voyages Down The Westren Seas , complited by the information office of the people,s Gavernement of Fu Jian province , China intercontinental press.

رابعاً: مواقع الإنترنت

- <http://albertchine.over-blog.com>
- <http://ayabushkahmar.blogspot.com>
- <http://eccentricyoruba.wordpress.com>
- <http://en.wikipedia.org>
- <http://hkmal.blogspot.com/>
- <http://mongolschinaandthesilkroad.blogspot.com>
- <http://people.cohums.ohio-state.edu>
- <http://threeblindmen.photoshelter.com>
- <http://www.mahalo.com>
- <http://www.mapsorama.com/zheng-he-map-in-15th-century/>